الآفة الثانية والثلاثون
اليأس والقنوط

والآفة الثانية والثلاثون التى يُراد للأمة الإسلامية ـ أفرادًا وجماعات، حكامًا ومحكومين ـ بلوغها والوقوع فى شباكها وحبائلها إنما هى: «اليأس والقنوط».

وحتى يعالج منها مَنْ ابتلى بها، ويتوقاها، ويتحصن منها مَنْ سلَّمه الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فإنه لابدَّ من تنفيذ سلسلة من الواجبات تجمعها هذه السطور:

أولا : تعريف اليأس والقنوط لغة واصطلاحًا :

أ ـ اليأس لغة : يأتى اليأس لغة على معانٍ منها :

١ ـ انقطاع الأمل من الشىء، وانتفاء الطمع فيه، تقول: يئس من الشىء ييأسُ، ويَيْئِس يائسًا، ويآسةً : انقطع أمله منه، وانتفى طمعه فيه فهو يائس، ويؤوس، ويئس، ومنه: يئست المرأة: عقمتْ، فهى يائسة، ويئسة، ويقال للعقيم من النساء: يائس[(١)] .

٢ ـ الذل أو القهر والخضوع، أو اللين والتصاغر، تقول: آس أيسا: ذلَّ وخضع، وأس فلانٌ فلانًا: قهره، وتأيَّس فلانٌ فلانًا: لان وتصاغر[(٢)] .

ولا تعارض بين المعنيين: إذ انقطاع الأمل من الشىء، وانتفاء الطمع فيه يفضى إلى الذلِّ والقهر، أو اللين والتصاغر مع الخضوع .

ب ـ اليأس اصطلاحًا : هو انقطاع الرجاء فى الخروج من المأزق الراهن الذى تعيشه الأمة: أفرادًا وجماعات، حكامًا ومحكومين بصورة تفضى إلى الذل والقهر، أو اللين والتصاغر، والخضوع والاستسلام[(٣)] .

(١، ٢) انظر: النهاية فى غريب الحديث والأثر ٤/ ٢٦٢ مادة: «يئس»، ١٠/ ٥٣ مادة «أيس»، وعمدة الحفاظ فى تفسير أشرف الألفاظ لأحمد بن يوسف المعروف بالسَّمين الحلبى ت ٧٥٦هـ ٤/ ٤٠١، ٤٠٢، والقاموس المحيط للفيروزآبادى ٢/ ٢٨٩ مادة: «أيس»، ٢/ ٣٧٩ مادة : « يئس » ، والمعجم الوسيط ١/ ٣٤، ٢/ ١٠٦٢.

(٣) المرجع السابق .

أ ـ القنوط لغة :

١ ـ هو أشد اليأس من الشيء، تقول: قَنَط يقنَط فهو قانط، وقَنوط: شديد اليأس من الشيء، ومنه قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِى يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا﴾ [الشورى : ٢٨] .

٢ ـ هو اليأس نفسه، ومنه قوله تعالى فى التنزيل : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِىَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ﴾ [الزمر : ٥٣] (١) .

ب ـ القنوط اصطلاحًا : هو شدة انقطاع الرجاء فى الخروج من المأزق الراهن الذى تعيشه الأمة: أفرادًا وجماعات، حكامًا ومحكومين بصورة تفضى إلى الذل والقهر، أو اللين والتصاغر، والخضوع والاستسلام (٢) .

ثانيًا : بعض المظاهر الدالة على اليأس والقنوط مع بيان موقف الإسلام من هذه الآفة :

وهناك مظاهر كثيرة تدل على اليأس والقنوط، نذكر منها :

١ ـ التخلّى عن الالتزام بالإسلام بدعوى أن الالتزام بالإسلام جرَّ علينا ويلات، وويلات، وأعطى الأعداء فرصة لحربنا مرَّة باسم: الإرهاب، وثانية باسم: التطرف، وثالثة باسم: الأصولية. . . وهكذا.

٢ ـ القعود عن جهاد الدعوة إلى الله، والتربية بدعوى أننا ندعو الآخرين ونربيهم على العمل بدين الله، ولدين الله، من أجل تصدير هؤلاء إلى سجون ومعتقلات الطغاة والجبارين الذين ابتليت بهم هذه الأمة، أو بدعوى أنَّ ما نصل إليه من نجاحات مع هؤلاء فى سنوات تهدمه وسائل الإعلام، ومدارس، ومعاهد التعليم ذات التوجه المخالف لعقيدة الأمة فى لحظات.

٣ ـ عدم الثقة بأىٍّ شيء ينتمى إلى الإسلام سواء فى المجال الاقتصادى، أو التعليمى، أو الصحى، أو الإعلامى، أو السياسى، أو الاجتماعى، أو غير ذلك من المجالات، بل السخرية، والاستهزاء.

٤ ـ تثبيط همم الملتزمين بالإسلام، والداعين إليه، بدعوى: أنكم ما عملتم شيئًا سوى إفناء أعماركم فى سلسلة طويلة من الشدائد والامتحانات عادت بالضرر عليكم وعلى أهليكم، وذويكم، بل على الأمة جميعًا.

(١، ٢) انظر : النهاية فى غريب الحديث والأثر ٣/ ٢٧٩، وعمدة الحفاظ فى تفسير أشرف الألفاظ ٣/ ٤٠١، والقاموس المحيط ٢/ ٥٦٢، والمعجم الوسيط ٢/ ٧٦٢ مادة : « قنط » بتصرف.

٥ ـ الثقة المطلقة بأعداء الأمة بدعوى نجاحهم فى كلِّ شىء، أو إمساكهم بزمام العالم، وقدرتهم على متابعتنا، وملاحقتنا حتى فى مخادع النوم، وإنزال الضرر بنا إن أرادوا.

٦ ـ تصديق أعداء الأمة فى كلِّ ما يقولونه عنا لاسيَّما فى مجال تشويه تاريخنا، ومسيرتنا الإسلامية، بل ترديد ذلك وإشاعته، وإذاعته بيننا بكل ما يمكن من أساليب ووسائل إلى غير ذلك من المظاهر الدالة على اليأس والقنوط.

هذا.. ويقف الإسلام من هذه الآفة موقف المحرِّم لها، الرافض الوقوع فى حبائلها وشباكها، ومن باب أولى الدعوة إليها، قال تعالى على لسان يعقوب ـ عليه السلام ـ وهو يستحث أبناءه الضرب فى الأرض طلبًا ليوسف وأخيه يحدوهم الأمل، والرجاء فى الله دون يأس أو قنوط من باب أن اليأس والقنوط من أخلاق الكافرين: ﴿ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [يوسف].

يقول الإمام الألوسى ـ رحمه الله: « ﴿وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ﴾ : أى لا تقنطوا من فرجه سبحانه، وتنفيسه ﴿إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ : لعدم علمهم بالله تعالى وصفاته، فإن العارف لا يقنط فى حال من الأحوال، أو تأكيدًا لما يعلمونه من ذلك »[1].

وقال تعالى مبيِّنًا أنه من أخلاق الكافرين فى أكثر من آية: منها قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾

[العنكبوت]

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴿١٣﴾﴾ [الممتحنة].

وفى معنى يأس هؤلاء قال ابن جرير الطبرى: « واختلف أهل التأويل فى تأويل قوله: ﴿ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴾ فقال بعضهم: معنى ذلك قد يئس هؤلاء القوم الذين غضب الله عليهم من اليهود مِنْ ثواب الله فى الآخرة، وأن يُبعثوا كما يئس الكفار الأحياء من أمواتهم الذين هم فى القبور أن يرجعوا إليهم... وقال آخرون: بل معنى ذلك قد يئسوا من الآخرة أن يرحمهم الله فيها،

(١) انظر: روح المعانى ١٣ / ٤٤ المجلد الخامس.

ويغفر لهم، كما يئس الكفار الذين هم أصحاب قبور قد ماتوا، وصاروا إلى القبور من رحمة الله، وعفوه عنهم فى الآخرة، لأنهم قد أيقنوا بعذاب الله لهم».

ثم ساق من المأثور ما يؤيِّد كلا من القولين [١] .

وقال تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ (٩) ﴾ [هود] . وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا (٨٣) ﴾ [الإسراء] . وقال تعالى : ﴿ يَسْأَمُ الإِنسَانُ مِن دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ (٤٩) ﴾ [فصلت] .

والإنسان فى هذه الآيات الثلاث الأخيرة : هو الكافر أو هو الذى يعبد الله على حرف ، فإن أصابه خير اطمأن به ، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة.

وقال تعالى : ﴿ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ (٥٥) قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ (٥٦)﴾ [الحجر] . وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ (٣٦) ﴾ [الروم] .

ودعا صراحة إلى التحرر منها بقوله سبحانه : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) ﴾ [الزمر] .

ولا يقولنَّ قائل: كيف يكون اليأس حرامًا، والله حكى عن الأنبياء سريانه إلى نفوسهم بقوله : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ وَلا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (١١٠) ﴾ [يوسف] .

والجواب أن فى تحديد المراد من الاستيئاس هنا أقوالا، منها :

١ ـ أن الرسل أيسوا من إيمان قومهم، وأن قومهم ظنُّوا أن الرسل كذبوا بدليل ما رواه الطبرى بأسانيد متنوعة من طريق عمران بن الحارث، وسعيد بن جبير، وأبى الضُّحى، وعلى بن أبى طلحة، والعوفى، كلهم: عن ابن عباس فى هذه الآية قال: «أيس الرسل مِنْ إيمان قومهم، وظنَّ قومهم أن الرسل كذبوا » [٢] .

---

(١) انظر : جامع البيان ٢٨/ ٥٣ ـ ٥٤ .

(٢) انظر : جامع البيان فى تفسير القرآن ١٣ / ٥٤ ـ ٥٦ م٧ ، وعنه نقل ابن حجر فى : فتح البارى ٨/ ٣٦٨ .

وعند النسائى من طريق أخرى عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿قَدْ كُذِبُوا﴾ قال : « استيأس الرسل مِنْ إيمان قومهم، وظنَّ قومهم أن الرسل قد كذبوهم» (١) .

٢ ـ أو أن الرسل كانت تخاف بعد أن وعدهم الله النصر أن يتخلف النصر لا من تهمة بوعد الله، بل لتهمة النفوس أن تكون قد أحدثتْ حدثًا ينقض ذلك الشرط، فكان الأمر إذا طال، واشتد البلاء عليهم دخلهم الظنُّ من هذه الجهة (٢) ، والراجح هو القول الأول تنزيهًا للرسل الذين جاءوا لزرع الثقة والأمل فى النفوس بعد اقتلاع جذور اليأس والقنوط(٣) .

ثالثًا : أسباب وبواعث اليأس والقنوط :

وهناك أسباب تؤدى إلى اليأس والقنوط، وبواعث تحمل عليهما نذكر منها:

١ ـ كثرة الإخفاق، ودوام الفشل مع إهمال النفس من المحاسبة :

ذلك أن المرء عرضة فى عمله للنجاح والفشل، والفوز والإخفاق، بيد أن الإخفاق إذا كثر، وتتابع الفشل، ولم يراجع المرء نفسه ليعرف سبب هذا الإخفاق، وبواعث هذا الفشل، ويعمل على التخلص منها، فإنه قد يصاب بنوع من اليأس والقنوط ينتهيان به إلى أثر أو أكثر من آثار اليأس والقنوط التى سنعرض لها بعد قليل.

والمتأمل فى جهاد الأمة المسلمة فى نهاية القرن الميلادى الماضى وهذا القرن يجد أن هذه الأمة بذلت الكثير من نفسها ومالها لتطهير أرضها من الغاصبين والمحتلين، ولكن المتربصين ممن لا دين لهم ولا خلاق من أبناء هذه الأمة استطاعوا ـ بطريق أو بأخرى ـ سرقة هذا الجهاد، وتوظيفه لصالح الغاصبين المحتلين من ناحية، وتحقيق مآربهم ومصالحهم الشخصية من ناحية أخرى، ولم تفكر الأمة فى مراجعة نفسها، ومعرفة سبب هذه المحنة، بل سبب تكرارها فى أكثر من مكان، الأمر الذى يوشك أن يلقى

---

(١) انظر : السنن الكبرى: كتاب التفسير: باب قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ ﴾ ٦/ ٧٣٠ رقم (١١٢٥٧) من حديث ابن عباس بهذا اللفظ، وقال عنه ابن حجر فى : فتح البارى ٨/ ٣٦٩: « وإسناده حسن» .

(٢) انظر : جامع البيان فى تفسير القرآن ١٣ / ٥٦ ـ ٥٧ م٧، وعنه نقل ابن حجر فى : فتح البارى ٨/ ٣٦٨ .

(٣) انظر : جامع البيان فى تفسير القرآن ١٣ / ٥٧ ـ ٥٨ م٧، وعنه نقل ابن حجر فى : فتح البارى ٨/ ٣٦٩ .

على الأمة ظلالا من اليأس والقنوط، إلا أن تتداركها رحمة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وقس على ذلك تصفية شركات توظيف الأموال، وحل النقابات والجمعيات العلمية، ونوادى أعضاء هيئة التدريس، وتغيير مناهج التعليم، وتشويه تاريخ الأمة المجيد فى أكثر من بلد وناحية، مع إهمال البحث عن سبب ذلك، والعمل على التخلص منه، ومداواته بما يناسب من الدواء.

٢ ـ الجهل بموقف الإسلام من اليأس والقنوط :

ذلك أن الإسلام يحرِّم اليأس والقنوط، ويحذر منهما أشدَّ التحذير على النحو الذى مضى آنفًا.

والجهل بهذا الموقف يوقع المرء فى اليأس والقنوط دون أدنى شعور من وخز النفس، وتردد الصدر.

٣ ـ الوقوف عند حالات الفشل مع نسيان حالات النجاح فى الماضى والحاضر:

ذلك أن حياة المرء لا تخلو من حالات نجاح، وحالات فشل، وقد يقف المرء عند حالات الفشل ناسيًا أو متناسيًا حالات النجاح، وعند ذلك يصاب باليأس والقنوط.

وبالمثل لا تخلو حياة الأمة المسلمة من حالات نجاح لا حصر لها : حسبنا بقاؤها عزيزة الجانب، مرهوبة الكلمة ثلاثة عشر قرنًا من الزمان، وحسبنا الإقبال على الإسلام اليوم من غير المسلمين بصورة عديمة النظير، بل إقبال الكثير من المسلمين لاسيَّما الناشئة والشباب على الالتزام بالإسلام والغيرة أشد الغيرة لانتهاك الحرمات فى النفس، وفى المال، وفى العِرض، وفى الأوطان والمقدسات، ومقارعة الكافرين والمستعمرين فى: أفغانستان، والبوسنة والهرسك، وفلسطين... وغيرهم، بل العمل على تطبيق شرع الله فى كل شىء، وإن غضب الكافرون، وأذنابهم، كما فى السودان. ولكن لا تخلو حياة الأمة كذلك من جوانب الفشل على النحو الذى تعيشه الآن، والوقوف عند جوانب الفشل هذه، ونسيان جوانب النجاح، وما أكثرها يوقعها لا محالة فى اليأس والقنوط.

٤ ـ الغفلة عن جوانب الفشل فى حياة الأعداء :

ذلك أن حياة الأعداء رغم ما فيها من نجاحات تتمثل فى هذا التقدم العلمى الهائل فى كلِّ شؤون الحياة، والذى به كانت سيادة وسيطرة هؤلاء على غيرهم من الأمم

الضعيفة أو المستضعفة، إلا أنها لا تخلو من جوانب فشل وإخفاق فى جانب القيم والأخلاق، فمنها ما ينكر وجود الله بالمرَّة، ويقول: الكون مادة، ولا إله، والدين أفيون الشعوب، ولا آخرة، وإنما هى أرحام تدفع وأرض تبلع، وما يهلكنا إلا الدهر، وتبعًا لذلك يطلق العنان لنفسه أن تنال حظها من الشهوات بكل ما تيسَّر لها من سبل وأساليب، ومنها ما يشرك بالله ويتصور الجزاء فى الآخرة قائمًا على مبدأ المحاباة، والمحسوبية وتبعًا لذلك يُقبل على الشهوات واتباع الهوى غير ملتزم بأى ضابط خُلقى وإنسانى، ولقد انتهتْ الأمور بهؤلاء وأولئك إلى القلق والاضطراب النفسى، والفرقة، والقطيعة، والعلل، والأمراض البدنية المستعصية على العلاج، وشيوع الجريمة، وتمرد الظواهر الكونية ونحوها، وأخيرًا اليأس والقنوط إلى حدٍّ كراهية الحياة، ومحاولة التخلص منها بطريق أو بأخرى.

وهكذا.. لا تخلو حياة الأعداء من جوانب فشل نهايتها اليأس والقنوط، وغفلة المسلم عن هذه الجوانب يوقعه فى اليأس والقنوط لا محالة.

٥ ـ عدم معرفة الله حقَّ المعرفة :

وقد تؤدى عدم معرفة الله حق المعرفة من أنَّه سبحانه موصوف بكل كمال، منزه عن كلِّ نقص، ومن كماله سبحانه : نصر المؤمنين، وإعزاز الدين، شريطة أن يكون المؤمنون أتقياء أقوياء، فإن اختل هذان الشرطان أو أحدهما كانت السيادة والغلبة لغيرهما ليفيق المؤمنون، ويعودوا للأخذ بأسباب القوة والغلبة، قد تؤدى عدم معرفة الله على النحو المذكور إلى الوقوع فى اليأس والقنوط.

٦ ـ سوء الظنِّ بالله ـ عزَّ وجلَّ :

وقد يؤدى سوء الظن بالله ـ عزَّ وجلَّ ـ من أنَّه لا ينصر دينه ولا يؤيد أهله، وأولياءه ، وأن دينه سيضمحل ، وأن أهله وأولياءه سيقضى عليهم، وينتهون، كما قال سبحانه : ﴿ **وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَا هُنَا** ﴾ [آل عمران: ١٥٤] .

وكما قال ـ عزَّ من قائل: ﴿ **وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً ﴿٦﴾** ﴾

[الفتح]

إذ يقول ابن القيم ـ رحمه الله : « فَمَنْ ظنَّ بأنَّه لا ينصر رسوله، ولا يُتمُّ أمره، ولا يؤيِّده، ويؤيِّد حزبه ويعليهم، ويظفرهم بأعدائه، ويظهرهم عليهم، وأنَّه لا ينصر دينه، وكتابه، وأنه يُديل الشرك على التوحيد، والباطل على الحقِّ إدالةً مستقرة يضمحلُّ معها التوحيد والحق اضمحلالا، لا يقوم بعده أبدًا ، فقد ظنَّ بالله ظنَّ السَّـوْء، ونسبه إلى خلاف ما يليق بكماله، وجلاله، وصفاته، ونعوته » (١) .

قد يؤدى سوء الظن بالله هكذا إلى الوقوع فى اليأس والقنوط.

٨ ـ ضرب أو إجهاض كل محاولة نجاح أو فوز :

وقد يكون الحرص على ضرب كل محاولة نجاح أو فوز أو على الأقل إجهاضها من البواعث التى تحمل على اليأس والقنوط، ذلك أنَّ مرور النجاح أو الفوز بسلام واستقراره على أرض الواقع مما يبعث الأمل فى النفوس، ويبثُّ الثقة فى القلوب، أمَّـا القضاء على كل نكاح أو فوز بالضرب أو الإجهاض فإنه يسمح بتسرب اليأس والقنوط إلى النفوس.

وأمثلة ذلك من الواقع المُعاش اليوم كثيرة لا تخفى على كل ذى لُبٍّ، وذى بصيرة على المستوى الفردى، والجماعى، والحكومى، والشعبى، والدولى، والعالمى.

٩ ـ عرض تاريخ الأمة : أفرادًا وجماعات، حكامًا ومحكومين، عرضًا مشوَّهًـا مبتورًا :

وقد يكون عرض تاريخ الأمة: أفرادًا وجماعات، حكامًا ومحكومين، عرضًا مشوَّهًـا، مبتورًا من الأسباب التى توقع فى اليأس والقنوط، ذلك أن قيمة كل أمَّـة فى صفاء تاريخها، ونقاء سيرتها أفرادًا وجماعات، حكامًا ومحكومين، فإذا ما شوِّه هذا التاريخ، وعُرض عرضًا مبتورًا ناقصًا فقد قضى على ما تُفاخر به الأمـة وتباهى به بين الأمم والشعوب، وفتح الباب لتسرب اليأس والقنوط إلى النفوس على النَّحـو الذى صنعه الأعداء والمغرضون بتاريخنا، وحسبنا من ذلك ما عرضه جورج زيدان فى كتابه: «تاريخ التمدن الإسلامى»، وما عرضته إسرائيل وهى تحتفى بمرور خمسين عامًا على إنشائها من تزييف النجاح الذى حققته الأمة فى حرب رمضان عام ١٩٧٣م، وتشويه المستشرقين والمستغربين لجهاد المجاهدين من أبناء هذه الأمـة، بدءًا بالشيخ محمد بن عبد الوهاب، وانتهاءً بالشيخ حسن البنا عليهما من الله الرحمة والرضوان.

---

(١) انظر : بدائع التفسير لابن قيم الجوزية ١ / ٥١٩ .

١٠ ـ القطيعة والفرقة :

وقد تكون القطعية والفرقة من بين الأسباب التى توقع فى اليأس والقنوط، ذلك أن المرء قليل بنفسه، كثير بإخوانه، والدين لا يمكن له التمكين الصحيح إلا بجماعة تتمتع بكل مواصفات الجماعة، كما قال عمر رضي الله عنه : « لا إسلام إلا بجماعة، ولا جماعة إلا بإمارة، ولا إمارة إلا ببيعة، ولا بيعة إلا بطاعة »(١) .

وإذا دبت القطيعة بين أبناء الأمة الواحدة، وعلتها الفرقة والتمزق زال وانمحى مبعث الأمل والرجاء من نفس المسلم، وحلَّ محله اليأس والقنوط.

١١ ـ الغفلة عن سنن الله فى مواجهة الإخفاق والفشل :

وقد تكون الغفلة عن سنن الله فى مواجهة الإخفاق والفشل من بين الأسباب التى تبعث على الوقوع فى اليأس والقنوط، ذلك أنَّ لله سننًا فى مواجهة الإخفاق والفشل، وتتمثل هذه السنن فى العمل بحكمة، واستمرار، مع استعانة بالله ـ عزَّ وجلَّ ـ، وحُسن توكل عليه حتى يقضى على هذا الإخفاق، ويزول الفشل والغفلة عن هذه السنن، والأخذ بها يوقع لا محالة فى اليأس والقنوط.

١٢ ـ العيش فى وسط يسيطر عليه اليأس والقنوط :

وقد يكون العيش فى وسط يسيطر عليه اليأس والقنوط سواء أكان قريبًا كالبيت، أم كان بعيدًا كالمجتمع، مما يبعث على اليأس والقنوط، لاسيَّما إذا لم يكتمل نضج المرء، ولم يكن يتمتع بالحصانة اللازمة للحماية من الوقوع فى براثن هذه الآفة.

١٣ ـ ضعف الهمم، وفتور العزائم، ونزول الإرادات :

وقد يكون ضعف الهمم، وفتور العزائم، ونزول الإرادات مما يبعث على اليأس والقنوط، ذلك أن الهمة القوية، والعزيمة الصادقة، والإرادة العالية مما يبعث على الأمل، ويزرع الثقة والرجاء فى النفوس أن تتخطى العوائق والحواجز مهما يكن شأنها وقوتها، بخلاف ضعف الهمة، وفتور العزيمة، ونزول الإرادة فإنها تفتح الباب أمام اليأس والقنوط أن يشقا طريقهما إلى القلوب، وأن يسيطرا على النفوس.

---

(١) الحديث أخرجه الدارميُّ فى: السُّنن: المقدمة: باب فى ذهاب العلم ١ / ٧٩ من حديث تميم الدَّاريِّ بلفظ: «تطاول الناس فى البناء فى زمن عمر، فقال عمر: يا معشر العريب الأرض، الأرض، إنه لا إسلام إلا بجماعة. . .» الحديث.

١٤ ـ الغفلة عن عواقب وآثار اليأس والقنوط :

وأخيرًا قد تكون الغفلة عن عواقب وآثار اليأس والقنوط على كلٍّ المستويات الفردية والجماعية، الحكومية والشعبية، على النحو الذى سيظهر من خلال العرض بعد قليل، من بين الأسباب والبواعث الحاملة على اليأس والقنوط، من باب أن الجهل بالعواقب الضارة، والآثار المهلكة لأمر مَّا قد توقع المرء فى هذا الأمر، ثم يكون الندم حين لا ينفع الندم. إلى غير ذلك من الأسباب.

رابعًا : آثار وعواقب اليأس والقنوط :

ولليأس والقنوط آثار ضارة، وعواقب مهلكة سواء على العاملين أم على العمل الإسلامى، ودونك طرفًا من هذه الآثار وتلك العواقب:

أ ـ على العاملين :

فمن آثار اليأس والقنوط على العاملين :

١ ـ القعود عن أداء الواجبات :

ذلك أن اليأس والقنوط ينتهيان بالمرء إلى القعود عن أداء الواجبات، فإذا هو يتخلى عن الالتزام بمنهج الله، بل عن الدعوة إلى دينه سبحانه وتعالى متذرعًا بأن ذلك ألَّب الكارهين للإسلام الحاقدين عليه ضدَّه، وجرَّ عليه ويلات وويلات فى نفسه، وأهله، وذويه، وأمواله، ومركزه، وما كان أغناه عن ذلك، خصوصًا أن قضية الالتزام بدين الله، والعمل لهذا الدين ما جنتْ شيئًا يذكر فى مواجهة تحديات الأعداء.

٢ ـ دعوة الآخرين إلى القعود عن أداء واجبهم :

ذلك أن اليائس القانط الذى قعد عن أداء دوره وواجبه يريد أن يجد لنفسه سلوة أو أسوة، ولا يرى ذلك إلا فى دعوة الآخرين إلى القعود عن أداء دورهم وواجبهم مثله، وفى عصرنا الحاضر قعد واحد من أبناء الحركة الإسلامية عن أداء دوره وواجبه ضعفًا من ناحية، ويأسًا وقنوطًا من ناحية أخرى، فإذا هو يضع كتابًا بعنوان : « خمسة وعشرون عامًا فى جماعة» يدعو فيه الناشئة إلى الابتعاد عن الحركة الإسلامية لأنه لاقى الأمرين من وراء الالتحاق بها، وما جنى شيئًا يذكر، وهو يضنُّ بهؤلاء الناشئة أن يصيبهم مثل الذى أصابه، أو يحل بهم مثل الذى حلَّ به.

٣ ـ الخضوع والاستسلام لمن يُحادُّون الله ورسوله :

ذلك أن اليأس والقنوط إذا سيطرا على المرء لم يجدْ بُدًّا من الخضوع والاستسلام لمن يحادُّون الله ورسوله، ظانًّا أنه يجد عندهم النجاة والخلاص، وأولئك يعرفون نقطة الضعف هذه، فيستغلونها فى تحقيق مآربهم ومصالحهم، بأن يجعلوا من هذا الصنف من الناس عينًا لهم، بعد أن يلقوا به فى حمأة الإثم والرذيلة، وحينئذٍ يكون مِمَّن خسر الدنيا والآخرة جميعًا، وذلك هو الخسران المبين.

وفى تاريخ الحركة الإسلامية نماذج عدَّة من هذا النفر، منهم مَنْ قضى نحبه، ومنهم مَنْ ينتظر، وقد حاد عن الطريق المستقيم، فارتمى فى أحضان مَنْ يُحادُّون الله ورسوله مستسلمًا منقادًا لهم بسبب اليأس والقنوط.

٤ ـ الشك فى كلِّ ما ينتمى إلى الإسلام والمسلمين إلى حدِّ الطعن والتشويه :

ذلك أن اليأس والقنوط إذا سيطرا على المرء دخله الشك والارتياب فى كلِّ ما ينتمى إلى الإسلام والمسلمين : سياسيًا، واجتماعيًا، واقتصاديًا، وفكريًا، وعلميًا، وأدبيًا، وإعلاميًا، إلى حد السخرية، والاستهزاء، والاحتقار، والازدراء، بل الطعن والتشويه، وفى الواقع المعاصر نماذج عِدَّة ناطقة بصحة هذا الأثر يمكن اكتشافها بقليل من البحث والتنقيب.

٥ ـ حمله وزر نفسه وأوزار المقتدين به :

ذلك أنَّه بيأسه وقنوطه قد حمل وزرًا عظيمًا عن نفسه، وعن مَنْ اقتدى به لاسيَّما من الناشئة والشباب وضعاف الهمم والعزائم، لأنه حينئذ من دعاة الضلالة، وقد قال النبى ﷺ : « وَمَنْ دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام مَنْ تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئًا »(١).

ب ـ على العمل الإسلامى :

ومن آثار اليأس والقنوط على العمل الإسلامى :

١ ـ التعطيل والإيقاف :

ذلك أنه إذا سيطر اليأس والقنوط على القائمين على أمر العمل الإسلامى حملهم ذلك على تعطيل وإيقاف هذا العمل بدعوى الملاحقة من الأعداء، وأنه لا فائدة ولا جدوى ولا ثمرة تذكر من وراء هذا العمل.

---

(١) الحديث سبق تخريجه فى الجزء الثانى، آفة « التطلع إلى الصدارة وطلب الريادة».

٢ ـ العمل بتراخٍ وتوانٍ وتسيبٍ :

وحتى على تقدير عدم التعطيل والإيقاف للعمل يكون البديل عن ذلك العمل بتراخٍ، وتوانٍ، وتسيب، وفى فضول الأوقات، وعندما يصل العمل الإسلامى إلى هذا المستوى تطول الطريق، وتعظم التكاليف، ويتمكن الأعداء، فيعيثون فى الأرض فسادًا، ويعبثون بالقيم العليا، والمبادئ السامية، ويستبيحون المحرمات من الدماء، والأموال، والأعراض، والأوطان ونحوها.

٣ ـ الانحراف بالعمل عن مساره الصحيح :

وإذا لم يكن التعطيل والإيقاف، وكذلك إذا لم يكن العمل بتراخٍ وتوانٍ وتسيب، فإنه يكون الانحراف بالعمل عن مساره الصحيح بدعوى تفادى التصادم مع المناوئين استمرارًا للعمل، وإنجاحًا له، أو بدعوى عدم جدواه وفائدته بالأسلوب التقليدى القديم، أو بغير ذلك من الدعاوى والمبررات.

خامسًا : علاج اليأس والقنوط والوقاية من ذلك :

وحيث تمَّ تحديد ماهية اليأس والقنوط، والمظاهر الدالة عليهما، ووضعهما فى ميزان الإسلام، وبيان الأسباب والبواعث الحاملة عليهما، وآثارهما على العاملين، وعلى العمل الإسلامى، يأتى دور العلاج، بل الوقاية، وذلك باتباع هذه الخطوات:

١ ـ المعرفة الحقة بالله ـ عزَّ وجلَّ ـ مع حُسن الظن به ـ سبحانه وتعالى :

وذلك بدوام النظر فى آيات الله المنظورة فى الكون وفى النفس، وآياته المسطورة فى كتابه وسنة نبيِّه محمد ﷺ، فإن ذلك يعرِّفنا بالله ـ عزَّ وجلَّ ـ معرفة حقة تقود إلى حُسن الظنِّ به سبحانه وتعالى، وأنه ناصر دينه، معين مؤيد أهله وأولياءه ماداموا آخذين بأسباب النصر، والتأييد، والتمكين، لاسيَّما وقد جاء فى الحديث القدسى : « أنا عند ظنِّ عبدى بى . . . » (١) .

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب التوحيد : باب قول الله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾، وباب قول الله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ﴾ ٩/ ١٤٧ ـ ١٤٨، ١٧٧، ومسلم فى: الصحيح: كتاب: الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار: باب الحث على ذكر الله تعالى ٤/ ٢٠٦١ رقم (٢٦٧٥/ ٢)، وكتاب التوبة: باب الحض على التوبة والفرح بها ٤/ ٢١٠٢ رقم (٢٦٧٥/ ١) ، والترمذى فى: السنن: كتاب الزهد: باب ما جاء فى حسن الظن بالله ٤/ ٥١٤ ـ ٥١٥ رقم(٢٣٨٨)، وكتاب الدعوات: باب فى حسن الظن بالله ـ عزَّ وجلَّ ـ ٥/ ٥٤٢ رقم ٢٦٠٣، وابن ماجه فى: السنن: كتاب الأدب: باب فضل العمل ١٢/ ١٢٥٥ ـ ١٢٥٦ رقم (٣٨٢٢) ، والدارمىُّ فى : السنن : كتاب الرِّقاق : باب حسن =

إذ هو سبحانه يقول فى كتابه : ﴿ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ ﴾ [المائدة : ٣] .

كما يقول : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴾ [النور : ٥٥] .

ويقول أيضًا : ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣)﴾ [الصافات] .

ويُبيِّن أنه يبتلى عباده المؤمنين بما يبتليهم به تمحيصًا لهم، إذ يقول : ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ (١٤١)﴾ [آل عمران] . ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [آل عمران : ١٧٩] .

ويقول أيضًا : ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ(٣)﴾ [العنكبوت] .

وكذلك لكشف المنافقين، والأدعياء، والدخلاء، إذ يقول : ﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لاَّتَّبَعُوكَ وَلَكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٤٢) ﴾ [التوبة] .

وهكذا تقود المعرفة الحقة بالله إلى حُسن الظن به سبحانه، بما يدفع اليأس، ويقتلع القنوط من الأساس والجذور. ﴿ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٤٢)﴾ [التوبة] .

وهكذا تقود المعرفة الحقة بالله إلى حُسن الظن به سبحانه، بما يدفع اليأس، ويقتلع القنوط من الأساس والجذور.

٢ ـ اليقين أن اليأس والقنوط من أخلاق الكافرين الضَّالين لا مِنْ أخلاق المؤمنين الصادقين :

إذ المؤمنون الصادقون عارفون بربهم، واثقون من وعده لهم بالنصر، وتبعًا لذلك

= الظن بالله ٢/ ٣٠٥، وأحمد فى: المسند ٢/ ٢٥١، ٣١٥، ٣٩١، ٤١٣، ٤٤٥، ٤٨٠، ٤٨٢، ٥١٦، ٥١٧، ٥٢٤، ٥٣٤ ـ ٥٣٥، ٥٣٩، ٣/ ٢١٠، ٢٧٧، ٤٩١، ٤/ ١٠٦ كلهم من حديث أبى هريرة ﷺ إلا ابن ماجه فإنه عنده من حديث واثلة بن الأسقع، وزاد أحمد روايتين من حديث أنس بن مالك، وروايتين من حديث واثلة بن الأسقع، وعقَّب الترمذى على حديثه بقوله: «هذا حديث حسن صحيح».

فإنهم يوالونه ـ سبحانه ـ بمحبته وتعظيمه وطاعته ، والنزول على حكمه فى كل ما يأتون، وما يذرون، وإنْ نزل بهم من الشدائد والمحن ما نزل، فمن أين يأتيهم إذن اليأس والقنوط، سيَّما وقد جاء فى الحديث ما يكشف عن ذلك، إذ يقول ﷺ : «عجبًا لأمر المؤمن، إن أمره كُلَّه له خير ـ وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له »(١) .

بخلاف الكفار الضالين فإنهم غير مؤمنين بالله وبالدار الآخرة، وتبعًا لذلك فهم آيسون قانطون من رحمته فى الدنيا والآخرة، والمؤمن الحق يخاف أن يتصف بصفتهم من اليأس والقنوط، فيكفر بالله، ويضل عن سبيله، ويحرم خير الدنيا والآخرة، لذلك يجاهد نفسه أن تقع فى اليأس والقنوط، بل يعمل للتخلص منهما، إن ابتلى بهما، ليحيا ويموت والله عنه غير ساخط ولا غاضب.

٣ ـ دوام النظر فى قصص الأنبياء والمرسلين :

ذلك أن قصص هؤلاء الأنبياء والمرسلين ملىء بصور لا حصر لها من المحن والشدائد ووجهت منهم بالصبر والتحمل، والعمل مع الثقة فى الله، والأمل، والرجاء، أن يعينهم على تجاوز هذه المحن والشدائد، وقد كان :

هذا إبراهيم عليه السلام يُلقى فى النار، فلا ييأس، ولا يقنط، وإنَّما يضرع إلى الله، وكله أمل ورجاء أن يجيب الله دعاءه قائلا : «حسبنا الله ونعم الوكيل»(٢)، ويستجيب الحق ـ سبحانه وتعالى ـ له، فيحوِّل هذه النار بردًا وسلامًا على إبراهيم : ﴿ **قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ (٧٠) وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ (٧١)** ﴾ [الأنبياء] .

---

(١) الحديث أخرجه مسلم فى : الصحيح : كتاب الزهد والرقائق: باب المؤمن أمره كله خير ٤/ ٢٢٩٥ رقم (٢٩٩٩ / ٦٤)، والدارمىُّ فى: السنن: كتاب الرقاق: باب المؤمن يؤجر فى كلِّ شىء ٢/ ٣١٨ كلاهما من حديث صهيب مرفوعًا، واللفظ لمسلم، وكذلك أخرجه أحمد فى: المسند ٥/ ٢٤ من حديث أنس ابن مالك مرفوعًا بنحوه.

(٢) الحديث أخرجه البخارى فى: الصحيح: كتاب التفسير: سورة آل عمران: باب ﴿ **الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ..** ﴾ الآية ٦/ ٤٨ ـ ٤٩ من حديث ابن عباس قال : «حسبنا الله ونعم الوكيل: قالها إبراهيم عليه السلام حين أُلقى فى النار، وقالها محمد ﷺ حين قالوا: إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانًا، وقالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل»، وبإسناد آخر عنه أيضًا قال: «كان آخر قول إبراهيم حين ألقى فى النار: حسبى الله ونعم الوكيل»، والحديث وإن كان ظاهره أنه موقوف، لكن له حكم المرفوع، لأن مثل هذا لا مجال للرأى والاجتهاد فيه.

وهذا موسى عليه السلام يخرج ببنى إسرائيل ليلا من مصر إلى فلسطين ويتبعه فرعون وملؤه ، وحين يتراءى الجمعان يقول أصحاب موسى فى خوف وهلع : ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١) ﴾ ، ولكن موسى المؤمن بربه، الواثق من وعده له بالنجاة والنصر، يقطع هذا الخوف، ويبدده مطمئنًا لهم بقوله : ﴿ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) ﴾ [الشعراء] .

وفعلا يحقق الله له ما وعده به فيقول : ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣) وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخَرِينَ (٦٤) وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ (٦٥) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ (٦٦)﴾ [الشعراء] .

وبقيتْ هذه آية للأجيال اللاحقة تأخذ منها الدرس والعبرة وزاد الطريق، حيث يقول ـ سبحانه ـ : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَةً . . . ﴾ [الشعراء] .

وهذا زكريا يبلغ من العمر عتيًّا، ولا يُرزق الولد، فيدعو ربه فى ثقة وأمل قائلا: ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا (٤) وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا (٥) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا (٦) ﴾ [مريم] . ﴿رَبِّ لا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ (٨٩)﴾ [الأنبياء] .

وحقق الله له ما رجاه وما طلبه بقوله : ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ(٩٠)﴾ [الأنبياء]. ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلاَئِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ(٣٩)﴾ [آل عمران] . ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلاَمٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا (٧) ﴾ [مريم] .

وهكذا مَنْ ينعم النظر فى سير الأنبياء والمرسلين عمومًا يجد فيها زادًا غنيًّا لمقاومة حال اليأس والقنوط، بل على العكس، فإن هذا الزاد يسرى إلى القلوب حاملا معه الثقة فى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ والرجاء، والأمل، وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠] .

ويقول: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾ [يوسف : ١١١] .

ويقول : ﴿أُوْلَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠] .

٤ ـ دوام النظر فى سيرة وسنة نبيِّنا وإمامنا محمد ﷺ على وجه الخصوص:

إذ فيها ما يغرس الثقة فى النفوس، ويزرع الأمل والرجاء فى الصدور.

يقول ابن سيِّد الناس : « وروينا عن عثمان بن طلحة من طريق ابن سعد قال: كنا نفتح الكعبة فى الجاهلية يوم الإثنين، والخميس، فأقبل ـ يعنى النبى ﷺ ـ يومًا يريد أن يدخل الكعبة مع الناس، فغلَّظْتُ له، ونِلْتُ منه، وحلم عنِّى، ثم قال : « يا عثمان لعلك سترى هذا المفتاح يومًا بيدى أضعه حيث شئتُ»، فقلتُ: لقد هلكت قريش يومئذ، وذَلَّتْ، فقال: « بل عمرتْ، وعزَّتْ يومئذ»، ودخل الكعبة، فوقعتْ كلمتُه منى موقعًا ظننتُ يومئذ أن الأمر سيصير إلى ما قال، وفيه أنه عليه السلام قال له يوم الفتح : «يا عثمان، ائتنى بالمفتاح»، فأتيتُه به، فأخذه منِّى، ثم دفعه إلىَّ، وقال: «خذها تالدةً، خالدةً، لا ينزعها منكم إلا ظالم. يا عثمان، إن الله استأمنكم على بيته، فكلوا مما يصل إليكم من هذا البيت بالمعروف»، قال عثمان : فلمَّا وليتُ ناداني، فرجعت إليه فقال: «ألم يكن الذى قلت ؟» قال: فذكرتُ قوله لى بمكة قبل الهجرة: «لعلك سترى هذا المفتاح يومًا بيدى أضعه حيث شئت»، فقلت: بلى أشهد أنك رسول الله »[1] .

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : «أن رسول الله ﷺ أقبل يوم الفتح من أعلى مكة على راحلته مردفًا أسامة بن زيد، ومعه بلال، ومعه عثمان بن طلحة من الحَجَبة حتى أناخ فى المسجد، فأمره أن يأتى بمفتاح البيت، فدخل رسول الله ﷺ، ومعه أسامة بن زيد، وبلال، وعثمان بن طلحة، فمكث فيه نهارًا كاملا، ثم خرج فاستبق الناس، فكان عبد الله بن عمر أول مَنْ دخل، فوجد بلالا وراء الباب قائمًا، فسأله : أين صلَّى رسول الله ﷺ؟ فأشار له إلى المكان الذى صلَّى فيه، قال عبد الله : فنسيتُ أن أسأله: كم صلَّى سجدةً »[2] .

وفى مرسل الزهرى : (أن النبى ﷺ قال لعثمان يوم الفتح : « ائتنى بمفتاح الكعبة »، فأبطأ عليه، ورسول الله ﷺ ينتظره، حتى إنه ليتحدر منه مثل الجمان من العرق، ويقول: «ما يحبسه؟» فسعى إليه رجل، وجعلتْ المرأة التى عندها المفتاح ـ وهى أم عثمان ، واسمها سلافة بنت سعيد ـ تقول : إن أخذه منكم لا يعطيكموه أبدًا ،

---

(١) انظر: عيون الأثر فى فنون المغازى، والشمائل، والسير: فتح مكة: باب إبقاء ابن طلحة على السدانة رغم الذى كان بينه وبين الرسول قبل إسلامه ٢/ ٢٣١، وفتح البارى ٨/ ١٨ ـ ١٩ حيث عزاه إلى ابن إسحاق، من حديث صفية بنت شيبة، وقال: «إسناده حسن».

(٢) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب المغازى : غزوة الفتح : باب دخول النبى ﷺ مِنْ أعلى مكة ٥/ ١٨٨ ـ ١٨٩، وحجة الوداع : باب حجة الوداع ٥/ ٢٢٢ ـ ٢٢٣، ومسلم فى: الصحيح: كتاب الحج: باب استحباب دخول الكعبة للحاج وغيره، والصلاة فيها، والدعاء فى نواحيها كلها ٢/ ٩٦٦ ـ ٩٦٧ رقم(١٣٢٩ / ٣٨٨ ـ ٣٩٤) كلاهما من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما واللفظ للبخارى.

فلم يزل بها حتى أعطت المفتاح، فجاء به ففتح، ثم دخل البيت، ثم خرج، فجلس عند السقاية، فقال علىٌّ: إنا أُعطينا النبوة، والسقاية، والحجابة، ما قوم بأعظم نصيبًا منَّا، فكره النبىُّ ﷺ مقالته، ثم دعا عثمان بن طلحة، فدفع المفتاح إليه)[1].

وفى الهجرة من مكة إلى المدينة مكث ﷺ مع الصِّديق رضي الله عنه فى غار ثور ثلاث ليال، وقد تمكَّن المشركون من اقتفاء أثرهم إلى الغار حيث رأى الصدِّيق أقدامهم، فقال: « يا نبى الله، لو أن بعضهم طأطأ بصره رآنا » .

فقال له النبى ﷺ : « اسكتْ يا أبا بكر، اثنان، الله ثالثهما »[2] .

وإلى هذا اليقين الصادق، والتوكل الكامل أشارت الآية : ﴿ **إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا** ﴾

[التوبة : ٤٠]

وتمثل هذا النصر فى قوله سبحانه : ﴿**فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾**﴾ [التوبة] .

إلى غير ذلك من صور اليقين بوعد الله، والثقة بنصره فى أشد ساعات المحنة، وأحلك أوقات الشدة، والعيش فيها يقضى على اليأس والقنوط، ويجعل مكانه الثقة بالله، وأنه لا يتخلَّى عن عباده المؤمنين الصادقين.

٥ ـ الاستقراء الصحيح لمسيرة تاريخنا الإسلامى :

ذلك أنه مرَّتْ بالأمة الإسلامية : أفرادًا وجماعات فترات عصيبة أحاطت بها الخطوب من كل ناحية، ولفَّتْها الشدائد من كل جانب، ولكنها جاهدتْ، وأخلصت فى جهادها حتى مرَّت الخطوب، وانتهتْ الشدائد، وعادت كالذهب النضار.

هذا بيت المقدس ظلَّ رهينة فى أيدى الصليبيين إحدى وتسعين سنة، ثم خلَّصه المسلمون من قبضة أيديهم بقيادة زنكى، وصلاح الدين الأيوبى فى حطين عام ٥٩١هـ.

وها هم التتار جاءوا إلى بغداد عام٦٥٦هـ، فاستولوا على بغداد، بعد أن قتلوا الخليفة العباسى، وأعملوا السيف فى رقاب الأهلين وفرضوا حَظْر تجوُّل دام أربعين يومًا حتى تلوث الهواء، وفسد الجو، ومات بسبب ذلك من الأحياء أضعاف أضعاف مَنْ مات بأيدى التتار، ثم صنع هؤلاء الهمج الرعاع من ميراث المسلمين الفكرى

---

(١) الخبر أورده ابن حجر فى: فتح البارى ٨/ ١٨، وعزاه إلى عبدالرزَّاق، والطبرانى.

(٢) انظر: السيرة النبوية الصحيحة للدكتور: أكرم ضياء العمرى ١/ ٢١١ نقلا عن: فتح البارى.

والعلمى (كتبهم) جسرًا عبروا عليه من دجلة إلى الفرات إلى بلاد الشام، وهناك فعلوا بالناس ـ مع إعانة اليهود، والنصارى، والرافضة لهم ـ الأفاعيل، ثم صاروا من بلاد الشام إلى مصر للاستيلاء عليها، وكان بين حكام الشام والكرك والشوبك، وبين حكام مصر من الخلافات ما لا يعلمه إلا الله، ولكن عدوان التتار هذا أنساهم خلافاتهم وجمع شملهم، وتنادوا باسم الإسلام، فخفَّ أهل المغرب علماء وطلاب وعامَّة إلى المشرق لإعانة إخوانهم على التتار، وفى عين جالوت عام ٦٥٨هـ التقى الجمعان، وهزم الله التتر، وردَّهم على أعقابهم خاسرين، وأسلم التتر، وحسن إسلامهم حتى حملوا الإسلام إلى بلادهم ناشرين له، مدافعين عنه لأكثر من خمسة قرون من الزمان، وما كان هذا الموقف يتم من المسلمين فى وجه الصليبيين، ومن بعدهم التتار، إلا بطرحهم اليأس والقنوط من حياتهم، وتحليهم بالثقة التامة فى وعد الله بنصر المسلمين، وهزيمة وخزى غيرهم ممَّن يُحادُّون الله ورسوله، والمؤمنين، وقِسْ على هذين الموقفين مواقف أخرى أكثر من أن تُحصى.

وهكذا يمكن أن يساعد الاستقراء الصحيح لمسيرة تاريخنا الإسلامى الصحيح على تطهير النفوس من اليأس والقنوط، بل حمايتها أعظم الحماية من ذلك.

٦ ـ النظر الصحيح فى واقع الأمة المعاصر:

ذلك أن الأمة، وإن كانت تعيش اليوم حربًا على كلِّ المستويات: السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والفكرية، والعلمية، والأخلاقية، والعسكرية، والصحية، وغيرها تحت شعار تجفيف المنابع، إلا أن الإقبال على الالتزام بالإسلام التزامًا صحيحًا دائمًا لاسيِّما بين الناشئة والشباب اتخذ صورًا عدة، وهى من المبشِّرات التى تدفع اليأس والقنوط، وتزرع الثقة بالله فى النفوس، والأمل، والرجاء.

ففى المجال الثقافى والعلمى: أصبح هناك إقبال على تعلم اللغة العربية بكلِّ فروعها، وهذا من الأهمية بمكان لكونها مفتاح فقه الكتاب والسنة، وطريق الدخول إلى تاريخنا الإسلامى بسنائه، وضيائه، الأمر الذى يكون طريقًا إلى الوحدة الإسلامية الجامعة.

وصار هناك الحرص على الفقه فى الدين: عقيدةً، وعبادةً، وأخلاقًا ونظمًا وتشريعات، وهذا بدوره يُعد سببًا فى ضبط تصرفات المسلم من ناحية، وإرشاده إلى مكائد الشياطين، وسبيل إحباطها، وكيفية التخلص منها من ناحية أخرى.

كما برز النبوغ فى العلوم التجريبية من : طب، وهندسة، وفلك، وجيولوجيا، وزراعة، ونحوها حتى كانتْ نخبة العلماء الذين على أكتافهم تدور عجلة البحث العلمى والإنتاج فى كلٍّ من أوروبا الشرقية والغربية، وأمريكا، وهم بإذن الله رصيد مدخر للأمة يمكن توظيفه، والانتفاع به فى اللحظة الحاسمة، والبيئة المناسبة، كما كان الرد على الشبهات والأباطيل التى أثيرت وتثار بين الحين والحين حول الإسلام والمسلمين بصورة تحمى الناشئة والشباب من التأثر بهذه الشبهات والأباطيل.

كما انتشر الكتاب الإسلامى المبرز الصورة الكلية للإسلام بشموله ووسطيته، وواقعيته، وسماحته، ويسره، وثباته، ومرونته، بالإضافة إلى بعث المخطوطات فى كلٍّ فروع الثقافة والعلم من جديد بعد أن كادت تبلى وتموت.

وفى مجال الأخلاق والسلوك : برز الالتزام بالإسلام فى الحرص على تعاطى الحلال فى المطاعم، والمشارب، والملابس، والسكنى، ونحوها، وفى الحرص على الظهور بالمظهر الإسلامى فى الحجاب، وفى بناء البيوت وتخطيط التجمعات السكانية ونحوها.

كما علتْ الأصوات المنادية بتطبيق أحكام الشريعة الإسلامية حتى من أولئك الذين كانوا يعلنون فى إصرار: أنه لا دخل للسياسة فى الدين، ولا للدين فى السياسة، خطبًا لودِّ الشعوب المسلمة التى باتت لا يرضيها إلا أن تُحكم بشرع الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ووضعت الدراسات والبحوث اللازمة فى كثير من جوانب الشريعة الإسلامية تيسيرًا لسبيل التطبيق والتنفيذ.

وحرص الأكثرون على القيام بواجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، مع مراعاة شروطه وآدابه.

وباتت التجارب الواقعية : تُلحُّ على الشباب المندفع بعاطفة وحماسة للقيام بهذا الواجب عن طريق القوة فقط، وإراقة الدماء، أن يثوب إلى رشده، وأن يعود إلى وعيه مراعيًا الحكمة فى تطبيق هذا الواجب بلا ضرر، ولا ضرار.

وفى المجال الاجتماعى : كان التوسع فى أعمال البرِّ والمعروف من أجل تخفيف المعاناة عن كل صاحب حاجة، وكذلك مَنْ ألمَّ به عذر من الأعذار، كما تشهد بذلك بيوت الزكاة ولجانها، وكذلك صناديق الوقف الخيرى، ولجان العمل الإسلامى المنتشرة فى كلِّ قارات الدنيا، وكان التنسيق بين بعض الأقطار من أجل التعاون والتآزر لتحقيق المصالح والأهداف المشتركة، كما يشهد بذلك: منظمة المؤتمر الإسلامى وغيرها.

وفى المجال الاقتصادى : كان حصر الإمكانات والموارد الاقتصادية فى العالمين العربى والإسلامى من أجل العمل على توظيفها واستغلالها على أكمل وجه وأحسنه.

كما وضعت بعض السياسات والنظم الاقتصادية فى كثير من بلدان العالـمَيْن: الإسلامى، والعربى، لتحقيق التكامل والتعاون الاقتصادى، وكان التكامل والتبادل فى الصناعة والزراعة حسب الخصائص التى يتمتع بها كل واحدٍ من هذه البلدان، توفيرًا للتكاليف، وقضاءً على المنافسة غير المجدية، وتبادلا للخبرات، وإفادة من التجارب الاقتصادية فيما بينها.

وكان استخدام التقنية الحديثة، وتطويرها، وتوظيفها بما يساعد على التنمية الاقتصادية بأقل التكاليف، ومن أقصر طريق.

وقامت بيوت التمويل والمصارف، ملتزمة المنهج الإسلامى، وعاملا للتخلص من المعاملات المحرَّمـة، والمحظورة.

وفى المجال السياسى والإدارى : وضعت البحوث، وعقدت المؤتمرات التى تتناول الشكل الإسلامى للسياسة والحكم، المتمثل فى: الشورى، والانتخاب، والتعددية الحزبية، وتنصيب المرأة ونحوها، كما روجت أشكال الحكم القائمة فى العالم اليوم من: الديمقراطية، والدكتاتورية، والحكم الفردى الشمولى المطلق.

وشكَّلت بعض أنظمة الحكم فى العالم العربى والإسلامى على النمط الإسلامى، وإن كانت لا تزال تحتوى على جوانب النقص، ولكنها فى طريقها إلى الزوال بالاستمرار والصبر.

وفى مجال الأسرة وتربية الأولاد : كان الاهتمام بمعرفة مقاصد الزواج، وأنجح سبل تطبيقها وتنفيذها، وكذلك برز الاهتمام بالطفل من حيث إنه اللبنـة الأساسية فى بناء المجتمع بوضع رسائل صغيرة فى تربية الأولاد، وحل المشكلات التى تعترض سبيلهم من المنظور الإسلامى، وتمَّـتْ العناية بالمرأة المتمثلة فى إفهامها أن الإسلام ارتقى بها إلى مستوى لم يكن لها به عهد من قبل البعثة المحمدية، وقد أعطاهامن الحقوق قدر ما عليها من الواجبات سوى مسألة القوامة، حيث جعلها للرجل رعاية لمصلحة الأسرة عمومًا، والمرأة على وجه الخصوص، قال تعالى : ﴿**وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِى عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ**﴾ [البقرة: ٢٢٨] (١) .

(١) انظر: التربية الإسلامية: الصف الرابع الثانوى بدولة الكويت: الدرس الأخير بتصرف يسير.

وهكذا يمكن أن يؤدى النظر بمثل هذه الصورة من الاستقراء والتتبع فى واقع الأمة اليوم إلى اقتلاع اليأس والقنوط من النفوس، وشحن هذه النفوس بالثقة التامة فى الله، والرجاء، والأمل فى وعده بالنصر والتمكين عندما نأخذ بأسباب النصر والتمكين.

٧ ـ النظر فى واقع الأعداء بالأمس واليوم :

أمَّا واقع الأعداء بالأمس فمعروف مقدار ما نزل بهم من الفشل والهزيمة بأيديهم، وبأيدى المؤمنين فى: بدر، والخندق، وحُنين، ويوم بنى قينقاع، وبنى النضير، وبنى قريظة، وفى خيبر، وأثناء الحروب الصليبية، وما كان فى الحرب العالمية الأولى والثانية.

وأمَّا واقعهم اليوم فحسبهم ـ رغم التقدم العلمى الهائل الذى يعيشون فى كلِّ مناحى الحياة ـ انهيار القيم، وتحطم الأخلاق، وشيوع الجريمة، وسيطرة القلق النفسى، وعدم الصبر، والرضا، وسيادة الشكوك، والظنون الكاذبة، وتشتت القلوب، وشيوع الأمراض البدنية لاسيِّما التى استعصت على العلاج، وتمرد الظواهر الكونية، وكثرة الكوارث فى البرِّ، وفى البحر، وفى الجوِّ، وما أدى ذلك إليه من اليأس والقنوط، ومحاولة الانتحار والتخلص من الحياة.

إذ أنَّ دوام النظر فى واقع هؤلاء الأعداء بالأمس واليوم يطمئن المسلم أن الأعداء ممتحنون مثلنا وأشد، كما قال الله ـ عزَّ وجلَّ : ﴿ **إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ** ﴾ [آل عمران: ١٤٠] .

وكما قال ـ سبحانه وتعالى : ﴿ **إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً (١٠٤)** ﴾ [النساء] .

وأن علينا أن نصبر ونتحمل، ونؤدى واجبنا للخروج من قدر الهزيمة إلى قدر النصر، ومن قدر الفشل إلى قدر النجاح، وذلك هو وعد ربِّنا لنا إذ يقول : ﴿ **قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١٣٧)** ﴾ [آل عمران] .

٨ ـ محاسبة النفس دومًا لمعرفة أسباب الفشل والإخفاق، ثم محاولة التخلص من هذه الأسباب :

ذلك أن هذه المحاسبة المستمرة توقف المرء على جوانب الخلل فى حياته، والأسباب أو البواعث الدافعة لذلك، وهذا يحمل على التخلص من هذه الأسباب والبواعث إن كان المرء جادًا صادقًا مع نفسه، وبهذه المحاسبة يقضى على سبب رئيس من أسباب اليأس والقنوط، إذ سيقل الفشل والإخفاق، وربما يتلاشى تمامًا.

قال تعالى فى الدعوة إلى هذه المحاسبة : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الحشر] .

وقال ﷺ : « الكَيِّس مَنْ دان نفسه، وعَمِلَ لما بعد الموت،والأحمق مَنْ أتبع نفسه هواها، وتمنَّى على الله الأمانى » [١] .

٩ ـ التأمل فى إقبال غير المسلمين الشديد على الإسلام :

ذلك أن غير المسلمين قد أيسوا الأمن والأمان فى ظل المناهج الأرضية التى عاشوا فى كنفها، وتحاكموا إليها بعد أن دانوا بالإلحاد أو بالشرك، لأن منها مَنْ انهار بعد أن ثبت فشله، وعدم غناه أو جدواه، كالمنهج الاشتراكى أو الشيوعى القائم على أن الكون مادة، ولا إله، والدين أفيون الشعوب، ولا آخرة، وما هى إلا أرحام تدفع، وأرض تبلع، وما يُهلكنا إلا الدهر، ومنها ما هو فى طريقه إلى الزوال كالمنهج الرأسمالى القائم على إطلاق حقِّ الملكية بلا ضوابط، ولا قيود، فنشأ الاستغلال، والظلم من الأقوياء للضعفاء، ونشأت الأحقاد من الضعفاء للأقوياء، والكل أصبح غارقًا فى الجريمة والإثم لأنه لا يوحّد الله، ولا يقيم له وزنًا، ولا يرجو له وقارًا، ولا يخاف عقاب الآخرة لتصوره أنه ابن الله وحبيبه، فكيف يعذب الأب ولده، والحبيب حبيبه، ثم ها هم الأحبار، والرهبان، والحاخامات، يحلون لهم الحرام، ويُحرِّمون عليهم الحلال، ويعدونهم مغفرة ذنوبهم والجنَّة بعد ابتزازهم، وأخذ ما فى أيديهم وجيوبهم.

ولما آلت حالهم إلى هذا الوضع المزرى بحثوا عن الخلاص فما وجدوه سوى فى الإسلام، فأقبلوا إليه إقبالا عديم النظير، لاسيَّما فى أوروبا الشرقية والغربية، وأمريكا، مع قلة الجهد الذى يبذله المسلمون فى ذلك من ناحية، ومع السلوكيات المنحرفة من كثير من المسلمين من ناحية ثانية، ومع التشويه والتحريف للإسلام بأيدى المستشرقين والمستغربين وبعض أبنائه من ناحية ثالثة، وما ذلك إلا لأنه دين الفطرة والأمان، قال تعالى : ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الروم] .

وقال تعالى : ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [البقرة] .

والحال هذه تقتضى التأمل فيها، وأنَّ الله هو الذى يصنع لدينه، ولو كره المشركون والكافرون.

---

[١] الحديث سبق تخريجه فى الجزء الأول، آفة « الغرور » .

١٠ ـ تذكر حالات النجاح بالإضافة إلى حالات الفشل :

ذلك أنَّه إذا ألحَّتْ حالات الفشل على الفرد والجماعة، الحاكم والمحكوم، فإنه ينبغى ـ مقاومة لهذا الإلحاح ـ تذكُّر حالات النجاح والفوز فى النفس، وفى الكون، ومع الخصوم من شياطين الإنس، والجن، والله ـ عزَّ وجلَّ ـ عوَّدنا: أن مع العسر يسرًا، وأن مع الشدة الفرج، قال تعالى : ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ۝٧﴾ [الطلاق] .

وقال تعالى : ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾ [الشرح] .

ويفعل ذلك للمرء فى كلِّ يوم، بل فى كل ساعة، بل فى كل دقيقة، بل فى كل لحظة، رحمةً منه ـ سبحانه ـ وتفضلا، فإن تأخر ذلك فلحكمة لايعلمها إلا هو، قال تعالى : ﴿ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝١٦٨ ﴾ [الأعراف] .

ومَنْ يظل على هذه الحال متذكرًا النجاح بالإضافة إلى الفشل يبقى سليمًا من اليأس والقنوط، واثقًا بوعد ربه، متفائلا، عاملا إلى آخر الزمان.

١١ ـ التصرف بحكمة وقاية للمكاسب من الضرب أو الإجهاض:

ينبغى اليقين أن الأعداء والخصوم لا يرقبون فى مؤمنٍ إلاً ولا ذمَّة، وأنهم إذا تمكنوا لا يرضيهم شىء إلا أن نعود كفارًا مثلهم أو نموت.

قال تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾ [النساء : ٨٩] .

وقال تعالى : ﴿ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ۝٢ ﴾ [الممتحنة] .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا ۝٢٠ ﴾ [الكهف].

وقال تعالى : ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة : ١٢٠] .

وانطلاقًا من هذا اليقين وآثاره، فإن على المسلمين : أفرادًا وجماعات، حكامًا ومحكومين، أن يتصرفوا بلباقة وحكمة لاسيَّما فى مرحلة الضعف التى نعيشها اليوم تفاديًا لتحقيق ما يريد هؤلاء من الضرب أو الإجهاض لاسيِّما وقد قال الله ـ تبارك وتعالى : ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾

[النحل : ١٢٥]

وقال تعالى : ﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ (٢٦٩) ﴾ [البقرة] .

١٢ ـ الحرص على تحقيق الوحدة الإسلامية والمحافظة عليها :

وذلك بأن يكون لدينا اليقين التام: أن الوحدة الإسلامية والمحافظة عليها هى طريق القضاء على اليأس والقنوط، بل زرع الثقة بالله فى القلوب، والأمل فى النفوس، بيد أن هذه الوحدة لا تتحقق إلا بالإخلاص ثم بالأخوَّة الإسلامية التى فيها ينصح الأخ أخاه، ويأخذ بيده للتخلُّص من عيبه عمليًا، ويملأ عليه فراغ حياته، فلا تبقى لحظات تستغل مِنْ قبل شياطين الإنس، وشياطين الجنِّ،وتكسبه خبرات وتجارب، وتفتح له مزيد أبواب لتحصيل الأجر والثواب، وتُذهب عنه السأم والملل، وبالتالى اليأس والقنوط، وتعينه على إنجاز المطلوب من أقصر طريق، وبأقل التكاليف، وتحفظ له هيبته بين الناس.

وهكذا تثمر الأخوَّة الإسلامية فى ضوء ما تقدم وحدة إسلامية جامعة، تقف فى وجه الأعداء والخصوم، وتحبط المكائد والمؤامرات شريطة عدم الإصغاء لهؤلاء الأعداء، وعدم الثقة فيما يصدر عنهم مما ظاهره المشورة والإصلاح، وباطنه العذاب، والفساد، والإفساد.

١٣ ـ التخلص من صحبة المعروفين باليأس والقنوط ، مع العيش بين المتفائلين والمستبشرين :

وينبغى كذلك التخلص من صحبة المعروفين باليأس والقنوط لئلا يصيبه ما أصابهم، مع العيش بين المتفائلين والمستبشرين كى يفتح له هؤلاء باب الأمل، والرجاء، والثقة فى الله، وفى وعده بنصر المؤمنين، وصدق النبى ﷺ القائل: « مَثل الجليس الصالح والسوء، كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك إمَّا أن يحذيك، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحًا طيبة، ونافخ الكير إمَّا أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد ريحًا خبيثة » (١) .

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى: الصحيح: كتاب الذبائح والصيد: باب المسك ٧/ ١٢٥، ومسلم فى: الصحيح: كتاب البرِّ والصِّلة والآداب: باب استحباب مجالسة الصالحين ومجانبة قرناء السوء ٤/ ٢٠٢٦ رقم (٢٦٢٨ / ١٤٦) كلاهما من حديث أبى موسى الأشعرى مرفوعًا، واللفظ للبخارى.

١٤ ـ الانتباه إلى ضاعفة الوزر لليأس والقنوط :

ذلك أن المرء بيأسه، وقنوطه، موزور لا مأجور، لأنه استمع للشياطين، ولم يستمع لله والرسول، وبالتأكيد سيقتدى به فى يأسه وقنوطه آخرون، لاسيَّما الناشئة والشباب فيضاعف عليه الوزر: وزر نفسه، ووزر هؤلاء، ويلقى بذلك عذابًا أليمًا فى الدنيا والآخرة جميعًا.

قال تعالى : ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِم﴾ [العنكبوت : ١٣] .

وقال تعالى: ﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلا سَاءَ مَا يَزِرُونَ (٢٥) ﴾ [النحل] .

١٥ ـ مواجهة اليأس والقنوط بهمة عالية، وعزيمة صادقة :

ذلك أن الهمَّة العالية، والعزيمة الصادقة، والإرادة القوية تعين المرء على مواجهة أىٍّ من الشدائد : يأسًا أو قنوطًا من غير توانٍ أو انقطاع، وكذلك تعين على تخطِّى العقبات والمعوقات، كى تصل السفينة سالمة إلى شاطئ النجاة، وبرِّ الأمان، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ(٦٩)﴾ [العنكبوت] .

وقال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ (١٢٨) ﴾ [النحل] .

١٦ ـ الأخذ بسنن الله فى مواجهة الإخفاق والفشل :

ذلك أن لله سننًا فى كلِّ شىء فى هذا الوجود، لاسيَّما مع اليأس والقنوط، ولئن أراد الضعفاء التخلص من حالات اليأس التى أصابتهم، والقنوط الذى اعتراهم فليبحثوا عن هذه السُّنن، وليأخذوا بها، ومن هذه السُّنن: النجاح فى عمارة الأرض إلى حدِّ السيادة فيها، مع معرفة حكم الله، والأخذ به فى كل صغير وكبير، ثم حراسة الحقِّ من عدوان المبطلين وتطاول المتطاولين، مع الصبر والتحمل إلى أن يقضى الله أمرًا كان مفعولا.

وبعبارة أخرى ينبغى على العلماء ـ كلٌّ فى تخصصه ـ أن يحصروا آخر ما وصلت إليه البشرية من تطور وتقدم، ثم يضيفوا إليه الجديد الذى يجعلهم سابقين عصرهم، مواكبين واقعهم ، وكذلك على أرباب الأموال مساعدة هؤلاء العلماء فى تنمية البحث العلمى ليخطوا خطوات إلى الأمام، ومَنْ لم يكن من هذا الصنف ولا ذاك، فليسخِّر بدنه فى قضاء حوائج الناس من: حفر آبار، والأخذ بيد معوَّق أو طاعن فى السن،

وإرشاد الضال، وإغاثة ملهوف، وتفريج كربات المكروبين، وهلمَّ جرا، مع الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، كلٌّ بما يناسب حاله، وحال الأمة من تغيير باليد، أو باللسان، أو بالقلب، والصبر على مشاقِّ ذلك مع التحمل.

قال تعالى : ﴿وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣)﴾ [العصر] .

وقال تعالى : ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٠٥)﴾ [التوبة] .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد : ١١] .

١٧ ـ تذكر عواقب وآثار اليأس والقنوط :

وأخيرًا علينا أن نتذكر عواقب اليأس والقنوط الفردية والجماعية، وننعم النظر فى ذلك علَّها تكون حاملا على التخلص من هذا اليأس والقنوط، ودافعًا للحصانة منهما أن يأخذا طريقهما إلى النفوس مرَّة أخرى، فإن من تذكر العاقبة الضارة لأمر ما، وكان صادقًا مع نفسه، مراقبًا ربَّه أقلع عن هذا الأمر، وعمل جاهدًا على عدم العود إليه مرة أخرى.

والله ولى التوفيق .

obeikandl.com